



جامعة الناصر
AL-NASSER UNIVERSITY

العنف لدى الإنسان

إعداد أحمد معد : باحث دكتوراه بكلية علوم التربية

الرباط جامعة محمد الخامس السويسي

AUTHORIZED BY AL-NASSER UNIVERSITY'S RESEARCH OFFICE

جميع حقوق النشر محفوظة لمكتب البحوث والنشر بجامعة الناصر

مقدمة

تمر الإنسانية في عصرنا الحالي ظروفًا إنسانية عصبية أكثر من أي وقت مضى، ولعل هذه الظروف تتبدى فيما يعترى إنسان اليوم من تخوفات وتوجسات حول نفسه وحول ما يحيط به، أزمات ومشاكل تزعزع القناعات الاجتماعية والثقافية والسياسية مما تجعل الإنسان أكثر شكا حول مصيره المهدد بالعنف، إنه إحساس يمكن وصفه بالمذهل خصوصا بعدما لعبت وسائل الإعلام المرئية على وجه الخصوص ذات الوظيفة الإيديولوجية على وجه التدقيق دورا بارزا وملفتا للنظر، بل محرزا بالمباشر فيما يتعلق بما سمي بالحركات الاحتجاجية أو الربيع العربي الذي يفترض أن يتحول إلى صيف حار وجاف عنوانه العنف والقتل والتقتيل والتدمير والاستقرار.

فالعنف يشكل أحد الانشغالات الكبرى الإنسانية في وقتنا الحاضر ويعود ذلك إلى الانتشار المتزايد للعنف في مختلف مجالات الحياة، وعلى جميع الأصعدة في الأسرة والمدرسة والشارع ومكان الشغل... الخ. هذا زيادة على العنف غير المسبوق الذي بات يطبع العلاقات بين الأنظمة الحاكمة وشعوبها فيها يسمى بالربيع العربي.

و حين نتحدث عن إشكالية العنف فإننا نستحضر بالضرورة تقاطعات مفاهيمية وحدودا ابستمولوجية للعنف كظاهرة اجتماعية وكحالة نفسية، كما يمكن النظر إليه كقضية إنسانية أو أخلاقية تمس الإنسان في خصوصياته الإنسانية والقيمية، فنجد جملة من التصورات والمقاربات العلمية والفلسفية . وأحيانا يتعرض حتى لتفسيرات غيبية أو أسطورية؛ لما يستعصى فهم الظاهرة بشكل دقيق أو عندما يفشل الباحث في تعيين أسبابها علميا . وهكذا نضع الإشكالية في الأسئلة التالية :

بأي معنى يمكن اعتبار الإنسان كائنًا عنيفًا؟ وهل العنف طبيعي فطري يوجد حيثما يوجد الإنسان؟ أم أنه

نتاج شروط ثقافية واجتماعية يكتسبها الإنسان؟ وما هو المدخل أو المسار الأفضل لدراسته؟ هل باعتباره

قضية إنسانية تستوجب الدراسة الفكرية والتأمل الفلسفي الإنساني؟ أم باعتباره ظاهرة اجتماعية تحمل في

ذاتها شروط بدايتها وشروط تكونها؟ أم باعتباره حالة نفسية سلوكية تتطلب الدراسة النفسية العلمية والتقنية

بعيدا عن الخطابات المجردة؟

على هذا المنوال سنتناول مسألة العنف في هذا البحث وفق ثلاثة منطلقات :

المنطلق الأول: مفهوم العنف

المنطلق الثاني: أشكاله ومظاهره

المنطلق الثالث: الاتجاهات المفسرة له

أولا : مفهوم العنف:

تشير كلمة عنف إلى كل سلوك يتضمن معاني الشدة والقسوة والتوبيخ واللوم.. وعلى هذا الأساس فإن

العنف قد يكون سلوكا فعليا أو قوليا، أما في اللغة الإنجليزية فإن الأصل اللاتيني للكلمة Violence

هو Violentia ومعناها الاستخدام غير المشروع للقوة المادية بأساليب متعددة لإلحاق الأذى بالأشخاص

والإضرار بالمتلكات، ويتضمن ذلك معاني العقاب والاعتصاب والتدخل في حريات الآخرين¹، كما تعني

أيضا العمل بالخشونة والعنف والتدنيس والانتهاك والمخالفة، وكل هذه الكلمات ترتبط بكلمة " فيس (Vis)

التي تعني القوة والبأس والقدرة والعنف ، أو القوة الفاعلة والمؤثرة².

¹- أحمد مصطفى جابر « ضد العنف والتمييز » دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، الطبعة الأولى 2005 ص: 69.

²-العنف الأسري، سيكولوجية الرجل العنيف والمرأة المعنفة، منير كرادشة، عالم الكتب الحديث إربد- الأردن 2009 ص: 31.

إذا عدنا لمعجم روبير³ فإن الدلالة الغالبة على مفهوم العنف نجد استعمال القوة، كما نجد أيضا أنه يقسم إلى عنف جسدي وآخر أخلاقي .

وبنأملنا لهذه التحديدات سنجد أنها تشترك جميعا في أن العنف عبارة عن سلوك يتضمن معاني الشدة والقسوة واللوم، ويظهر أن أوضحها يكمن في الدلالة اللاتينية للمفهوم، إذ حدد العنف من خلالها كاستخدام غير مشروع للقوة المادية، بأساليب متعددة من عقاب واغتصاب وإضرار بالآخرين، وبالممتلكات، لكن هذا القصد الدلالي للمفهوم سيجعلنا نفكر في قيمة الاستخدام المشروع للقوة المادية للإضرار بالآخرين وبممتلكاتهم، هل ذلك لا يعتبر عنفا؟

ترى في هذا الصدد "Hannah Arendt" في كتابها " من الكذب إلى العنف" أن القوة لا تتحول إلى عنف إلا عندما تستخدم كأداة للسيطرة والهيمنة، ولعل هذا الطابع الغائي الذي يتسم به العنف البشري، وما ينطوي عليه من عناصر القصد والإرادة والتخطيط هو ما يميزه عن باقي أشكال العنف التي نعاينها في العالم الطبيعي، ولدى باقي الكائنات الحية⁴.

إن هذا التحديد للعنف يثير البعد الغائي في العنف، إذ يكون مقصودا ومخططا له، وهذا ما يجعله يختلف عن العنف لدى باقي الكائنات الحية، مما يجعل العنف يشير إلى مدى واسع من السلوكات التي تعبر عن حالة انفعالية تنتهي بإيقاع الأذى أو الضرر بالآخر، سواء أكان هذا الآخر فردا أو شيئا.

إذا كان العنف هنا كسلوك يعبر عن حالة انفعالية تنتهي بإيذاء الآخر كيف ما كان فردا أو شيئا فإن المكان والمجال الطبيعي لدراسته تستوجب تجاوز البعد الدلالي للمفهوم وصولا إلى البعد الانفعالي النفسي والبعد السلوكي وما يرتبط به من مفاهيم . فإيذاء الآخر يعتبر في حد ذاته عدوانا، لكن العدوان يختلف عن العنف من حيث كون هذا الأخير يمثل أقصى درجة في السلوك العدواني، فالعنف يصدر عن العدوان ولا يوجد عنف

³ - Petit Robert par Paul Robert, Dictionnaire de la langue Française.- rédaction dirigée par A.Rey et REY-Debove.107 avenue Parmentier, Paris- XI, p : 2097

⁴-العنف، مقاربات فلسفية، حماني أقليمي، وليمي، العدد 14، أبريل 2009، مطبعة مرجان مكناس، ص: 80

بدون شعور مسبق بالعدوان، إنه بالإضافة إلى هذا يعتبر أحد الوسائل للتعبير عن العدوان، كما يمكنه اتخاذ عدة أنماط سلوكية أبرزها أعمال القوة. فهو سلوك لا يمكن التنبؤ ببدايته ونهايته، ودوافعه متعددة على حد تعبير الباحث النفسي والاجتماعي "المصطفى حدية"⁵.

إن ما يمكن استنباطه من هذا التحديد هو أن العنف يتجاوز العدوانية من حيث الدرجة، هذه الأخيرة التي وصفها "مصطفى حجازي"⁶ بأنها تنخر في الوجود الإنساني لاسيما المقهور منه، وهي عبئ وتهديد للتوازن النفسي، ودافع للإقدام على بعض تصرفات تدمير الذات، وكدفاع وانتفاضة ضد التهديدات التي من الخارج⁷.
يدفعنا استحضار البعد النفسي لمفهوم العنف إلى مفهوم آخر وهو الغضب. يعرف "الفقيه الرازي"⁸ الغضب بأنه هوى النفس مركب في طبع الأدمي لدفع شيء مؤذ عن نفسه ويطلب فيه التوسط، لأن الإفراط فيه يضر بالغاضب أكثر مما يضر بالمغضوب عليه، وهو وسيلة للتعامل مع البيئة المهددة، ويتضمن استجابات طارئة وسلوكا مضادا لمثيرات التهديد، كما تصاحبه تغيرات فسيولوجية، لإعداد الفرد لسلوك يناسب الموقف المهدد، وهو نوعان: غضب محمود وغضب مذموم، فأما الأول فهو ضد الظلم والطغيان، وأما الثاني فإنه يكون لأجل المصالح الشخصية والبواعث الأنانية.

وقياسا على مفهوم الغضب كما تناوله "الرازي"، وقسمه إلى غضب محمود وآخر مذموم، قد انقسم العنف هو الآخر إلى محمود وآخر مذموم، وهذا سيفتح لنا آفاق التفكير في تصنيفات العنف، إذ يشير العنف المحمود إلى العنف المشروع ويشير العنف المذموم إلى العنف غير المشروع، وهذا هو التصنيف السائد للعنف في معظم الدراسات الاجتماعية والسياسية.

⁵- المصطفى حدية: قضايا في علم النفس الاجتماعي، الطبعة 1- 2005 ربانيت، الرباط، ص: 174
⁶- مصطفى حجازي 2001: : التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء الطبعة 8- ص: 167.
⁷-يقدم حجازي تفسيراً للعدوانية كدافع نفسي يهدف تدمير الذات كما تحدث أيضا الباحث المغربي مصطفى حدية عن العدوانية واعتبرها تبقى مجرد استعداد كامن وغير جلي لدى الكائن الاجتماعي.
⁸- عبدالرحمان مصلح الشراي "انحراف الأحداث في التشريع المغربي والقانون المقارن"، مطبعة الأمنية، الرباط، الطبعة الأولى 2002 ص:

تميز الدراسات الاجتماعية والسياسية بين العنف المشروع والعنف غير المشروع؛ أي العنف الضروري لتفادي عنف أكبر، وكثيرا ما يستمد مشروعيته من الوظائف الاجتماعية والاقتصادية التي يقوم بها باعتباره شرطا من شروط الاجتماع البشري، ويعد كل عنف يخرج عن هذا الإطار عنفا غير مشروع، وقبل التوسع في الحديث عن مشروعية العنف والذي قد يجرنا إلى الحديث عن العنف عبر التاريخ، يمكن أن نخلص بعد هذا التحليل المفاهيمي للعنف إلى تعريف عام يمكن اختصاره كما يلي:

"العنف هو كل استعمال للقوة يضر بالغير نفسيا أو جسميا أو رمزيا، فهو سلوك أو فعل مدمر يوجه إلى الآخر شيئا أو فردا للسيطرة عليه أو حرمانه من حقوقه أو القضاء عليه، لإشباع رغبات أو أهداف مادية أو معنوية، وقد يكون موجها للذات بنفس الكيفية التي يوجه بها ضد الآخر".

أشكال العنف ومظاهره :

جاء في تقرير منظمة الصحة العالمية لعام 2000⁹ أن العنف يقسم إلى ثلاثة أنواع:

1- العنف الموجه نحو الذات:

يتجسد هذا النوع في إلحاق الأذى بالذات ويتضمن السلوك الانتحاري وذلك منذ مجرد التفكير بالانتحار مروراً بالتخطيط لارتكابه حتى تنفيذ الفعل.

2- العنف بين الأشخاص:

يتمثل في العنف بين شخصين، وإذا كان بين أفراد الأسرة الواحدة فإنه يدخل في إطار العنف الأسري أما إذا وقع بين أشخاص ليس من أفراد نفس الأسرة ولا تجمعهم صلة قرابة ولا يعرفون بعضهم فإن ذلك يدخل في إطار العنف المجتمعي.

3- العنف الجماعي:

⁹- كاظم الشيب " العنف الأسري" قراءة في الظاهرة من أجل مجتمع سليم، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2007، المغرب ص 29.

يتمثل في سلوك جماعي يقوم به أشخاص باعتبارهم أعضاء ينتمون إلى جماعة معينة ضد جماعة أخرى، ويتأسس هذا العنف على الصراع حيث العنف والعنف المضاد وذلك لتحقيق أغراض اجتماعية.

صور العنف : أمراض اجتماعية 10

1- الاعتداءات الجسدية:

تتمثل في الأذى المباشر والمادي على الجسد، كالضرب والصفع واللكم والرفس، التي قد تنتج عنها جروح أو كسور أو إعاقة أو قتل. وذلك حسب الطريقة المستخدمة في ممارسة العنف والتي تتراوح بين عنف باليد أو الرجل إلى استخدام أدوات وآلات حادة كالسكين أو العصا، أو قطعة حديد أو سلاح قاتل .

2- الاعتداءات النفسية والمعنوية:

يقول المثل الشعبي في ثقافتنا " اللهم ضربة بدمها أو كلمة بسمها" كذلك تنظر ثقافتنا إلى أن الكلام المسموم أكثر خطورة من الضرب المفدي إلى الجرح. ولعل هذا الموقف الذي تزرعه الثقافة الشعبية نجده يتناغم ومنظري الجوانب النفسية في الإنسان، فالسب والشتم والإهانة والحط من قيمة الشخص المعنف ورميه بألفاظ دنيئة قد تؤثر عليه وتسقطه في دوامه من المشاكل والاضطرابات النفسية والمعنوية ، وقد ينهج سلوكا عنيفا مضادا .

3- الاعتداءات وسوء المعاملة المادية والاقتصادية :

يكمن ذلك في الضغوطات المادية أو العقوبات الاقتصادية التي قد يمارسها الكبار أو من يتحكم في مورد الرزق للضغط على المعتدى عليه أو عقابه أو تأنيبه وكمثال على ذلك في الأسر كأن يحرم الزوج زوجته من نفقتها، أو من بعض حاجاتها الضرورية كمصاريف البيت أو عدم شراء الملابس حتى في المناسبات ولو كانت قد تعودت على ذلك من قبل، وقد نجد مثالا على ذلك في حالة ضغط الآباء على أبنائهم وبناتهم

¹⁰- العنف الأسري: " كاظم الشيب " مرجع سابق، ص 30.

بحرمانهم من اقتناء الملابس التي يعشقونها ولو كانت في استطاعتهم لشراء ذلك، وقد يصل الضغط إلى متطلبات الدراسة أحيانا.

4- الاعتداءات الجنسية:

تتمثل الاعتداءات الجنسية بشكل عام حالات العنف الجنسي والقيام بأعمال جنسية فاضحة، ويعتبر الاغتصاب أحد أخطر أنواع هذه الممارسات الجنسية العنيفة، بحيث تصاحبها اعتداءات جسدية مادية مباشرة، كما قد تصاحبها أعراض نفسية أو نفس جسدية.

استنتاج

إن ما يمكن الخروج به في مسألة العنف هو أنه يظهر على شكل اعتداءات من أصناف شتى فالعنف من جهة يقسم إلى ثلاثة أنواع: أ-عنف موجه نحو الذات-ب-عنف بين الأشخاص-ج-عنف جماعي . ومن جهة أخرى يعتبر العنف مرضا اجتماعيا يتخذ صوراً متعددة يمكن تصنيفها في خمس صور من الاعتداءات وهي :

1- الاعتداءات الجسدية

2 - الاعتداءات النفسية والمعنوية

3 - الاعتداءات وسوء المعاملة المادية والاقتصادية

4 - الاعتداءات الجنسية

الاتجاهات المفسرة للعنف :

- **أولا:التناول الفلسفي للعنف**

يؤسس التناول الفلسفي ثلاث مفارقات حول العنف؛ فهو أولا مفهوم لا بد من تحديد ماهيته، وهو ثانيا قضية إنسانية تهدد أمن ووجود الإنسان، كما أنه ثالثا إشكالية فلسفية تنطوي على عدة أغاز ترتبط بأشكال العنف،

وبدوره في التاريخ، وبمشروعيته، وبماهيته في الوجود الإنساني ، فما هي أشكال العنف؟ وما دوره في

التاريخ؟ وكيف يمكن القول بعنف مشروع وآخر غير مشروع؟

مما لا شك فيه أن العنف من صميم الوجود الإنساني إنه مرتبط بالتجربة الإنسانية الفردية والجماعية، مما يتطلب تحديد علاقته بالتاريخ البشري، وفي هذا الصدد يضعنا التناول الفلسفي أمام مفارقة تفتحنا على مقاربتين يمكن لمساهما من خلال الإشكال الموالي:

بأي معنى يمكن الحديث عن دور العنف في التاريخ؟ هل العنف ظاهرة عابرة أم أنه مؤسس ومدشن

للتاريخ الإنسانية؟

المقاربة الأولى: العنف مؤسس ومدشن للتاريخ

تؤكد هذه المقاربة أن بفضل العنف وجد المجتمع، وتكونت الحضارة وقد اتفق في ذلك فلاسفة العقد الاجتماعي¹¹، على أن الإنسانية عاشت حالة الطبيعة ثم انتقلت إلى حالة المدنية، وفي هذا السياق يقول: " ج-ج روسو" في كتابه العقد الاجتماعي¹² " إن الانتقال من حال الطبيعة إلى الحال المدنية أوجد في الإنسان تبديلاً ملحوظاً، إذ أحل في سلوكه العدل محل الوهم الفطري، وأكسب أفعاله أدبا كان يعوزه من قبل، عند ذاك فقط إذ حل صوت الواجب محل الباعث المحرك الجسماني، والحق محل الشهوة ".¹³

إن ما يشير هنا إلى أن العنف في التاريخ البشري هو حالة الطبيعة المتميزة بالوهم الفطري والباعث المحرك الجسماني والشهوة، وذلك في مقابل حالة المدنية أو الثقافة التي انتقل إليها بعد نوع من التعاقد بين أعضاء المجتمع حيث يتنازل الناس عن قسط من حقوقهم وحررياتهم لصالح المصلحة العامة، ولعل ذلك واضحا من خلال قول روسو: " إن ما يفقده الإنسان بالعقد الاجتماعي هو حرته الطبيعية، والحق غير المحدود الذي كان له كل ما يستهويه ويجنيه ويمكنه الوصول إليه، وأما ما يكتسبه بالحرية المدنية "13.

11- فلاسفة العقد الاجتماعي: يقصد بهم الفلاسفة الغربيين الذين يروا أن أصل الاجتماع الإنساني نتاج تعاقد وميثاق انتقل الإنسان من خلاله من حالة الفوضى والحرب وهي حالة الطبيعة إلى حالة الثقافة والنظام وهي حالة المدنية أبرزهم ج.ج. روسو، وطوماس هوبز.

12- ج. جاك روسو: العقد الاجتماعي، ترجمة بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1972 ص 31.

13- نفس المرجع ص 31

إن العنف هنا هو سر الانتقال من حالة حرب الكل ضد الكل على حد تعبير " توماس هوبز" وهي حالة عنف معمم، تحول الحياة الإنسانية من حياة حيوانية عنيفة¹⁴ ليس فيها أمن إلى حالة مدنية وهي حالة النظام والقانون المتعاقد عليه لذلك يؤكد روسو على ضرورة عقد اتفاقات وسن قوانين توحد بين الحقوق والواجبات بهدف إقرار العدالة¹⁵ . وهكذا فكل امرئ إنما يلتزم بتعاقدته مع الآخرين على تأليف هيئة سياسية واحدة- بالخضوع لقرارات الأكثرية والتقييد بها¹⁶ .

إذا كان التعاقد على اتفاقات وقوانين يشكل بداية قيام الدولة وقيام الحضارة فهذا المعنى يعتبر العنف مؤسسا للتاريخ البشري، إذ جاءت الحضارة والثقافة في نظر " سجموند فرويد" لتخفف من حدة الدوافع العدوانية من خلال غرس القيم الأخلاقية والاجتماعية في النفوس وجعل العلاقات بين الناس تقوم على التعاون والحب، بالرغم من أن " فرويد" ينتقد الدولة بقوله: لئن كانت الدولة تمنع الفرد من اللجوء إلى الجور والظلم، فليس ذلك لأنها تريد تحقيق العدالة والقضاء على الظلم، بل لأنها تريد احتكار استعماله¹⁷ .

المقاربة 2: العنف مرتبط بالتطور التاريخي والاقتصادي والاجتماعي

يرتبط العنف في هذا المنظور بالتطور التاريخي، وهذا التطور وليد الصراع الطبقي، ويمكن التمييز بين نوعين من العنف، العنف الرجعي، وهو مذموم وغير مقبول، والعنف الثوري الذي يخدم القضاء على الاستغلال، وهو المدخل لتحقيق القضاء على الرأسمالية، فالعنف هنا نتاج لصراع المصالح، إنه إفراز تاريخي ناتج عن تعارض المصالح عند ظهور الملكية الخاصة.

ويمكن إضافة نوع آخر من العنف، وهو العنف السياسي، والذي يرتبط ب بروز المجتمع الطبقي القائم على الإقصاء الاجتماعي لمن لا يملك وسائل الإنتاج، إذ يصير كل نمط إنتاج اقتصادي معين يخفي تناقض بين

¹⁴ - Thomas Hobbes, le Léviathan, traité de la matière et la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, chap. XIV trad. Fr.traicand, Sirey 1971 pp120.

¹⁵ -J.J. Rousseau, le contrat Social, PUF, France 2000 deuxième Livre, chap. VI

¹⁶ -ج.لوك، في الحكم المدني، ترجمة ماجد فخري، عن محمد سيلا وعبد السلام بنعيد العالي، حقوق الإنسان، دار توفال للنشر ط 2-2004 ص

.26

¹⁷ - freud, Essais de psychanalyse , ed Payoy, p 240

قوى وعلاقات الإنتاج، مما يتفجر في صراع طبيعي عنيف يتفاقم حتى يصير إلى عنف ثوري، ودور العنف في التاريخ هنا هو دور ثوري مرتبط بنمط وبطبيعة الانتظام للتطور الاقتصادي للقضاء على الأشكال السياسية الجامدة التي تخدم جهة أو طبقة على حساب أخرى.

إن العنف الثوري هنا هو عنف جماهيري يشكل ضرورة تاريخية تلجأ إليها الطبقة غير المستفيدة من الإنتاج وهي الطبقة العمالية حسب التصور الماركسي للانتقال من النظام الرأسمالي حيث العنف السياسي والفقر والاعترا ب والاستلاب إلى نظام اشتراكي.

لكن إذا تأملنا هذا التحليل الذي يقترح نفسه كتحليل علمي بالرغم من أنه وصف بالإيديولوجي، فإنه في غياب التفاوت ومحاولة إفراز المساواة لن يغيب القهر والاعترا ب بقدر ما يمكن أن نسقط في المساواة الجائرة، والتي تصدر حسب صاحب كتاب " الإنسان الحاقد" ¹⁸ عن الكراهية والحقد، كما أنها تقضي على الاختلاف في المؤهلات فتجعل الأشخاص ذو المستوى العالي في مرتبة من دونهم، وهنا قد نسقط من جديد في عنف جديد مصدره الحقد والكراهية. لكن بالرغم من كل ذلك وحتى لا تبدد الأطراف المتصارعة نفسها ويضيع المجتمع في صراع عقيم، فإنه تفرض الحاجة إلى سلطة عليها ¹⁹، مما يجعلنا نرى أن العنف له امتدادات ذات بعد تاريخي مرتبط بالتطور وفق هذا التصور.

هكذا يمكن أن نفهم بأن التناول الفلسفي للعنف في بعده التاريخي يتلخص في : " إن ظاهرة العنف ملازمة

للتاريخ البشري كضرورة محركة للاقتصاد، وكسر وراء قيام المجتمع وتأسيس الدولة، وصناعة الحضارة

والثقافة".

في مشروعية العنف:

إن تأملا أوليا في عبارة : "مشروعية العنف" سيظهر أن العنف والمشروعية يوجدان على طرفي نقيض، فإذا كان العنف كما حددناه قبلا باعتباره فعلا مدمرا يضر بالآخر ولذلك يكون مرفوضا من طرف المجتمع،

¹⁸-ماكس شيلر، الإنسان الحاقد، ورا د عن غايات بيكون، أفاق الفكر المعاصر، الترجمة العربية، منشورات عويدات، بيروت ص: 870-868.

¹⁹ - F.Engles, L'origine de la famille, tard. J. stern, ed. Sociales, Paris, p 281-286.

فإنه بالمقابل نجد المشروعية تستند على الحق وعلى القانون، وعلى العدالة . في هذا الصدد يمكن رصد تصورين، الأول يرفض العنف ويسحب منه صفة المشروعية، والثاني يقول بمشروعية استعمال العنف.

الاتجاه الأول: استعمال العنف غير مشروع:

يذهب هذا الاتجاه إلى رفض أن يكون العنف مشروعاً، فالفيلسوف الألماني "كانط" مثلاً يرفض كل أشكال العنف، الأمر الذي جعله ينتقد ما اتصفت به الثورة الفرنسية من مجازر، ويؤكد على ضرورة تجنب حرب الإبادة والتنديد بأي حرب تقوم بها دولة أو جماعة ضد أخرى سواء أكانت بهدف التصفية العرقية أو لاعتبارات سياسية أو اقتصادية أو إستراتيجية، إذ يقول كانط " لا يمكن تصور حرب تأديبية بين الدول... فينتج عن هذا أن حرب الإبادة التي يمكن أن تؤدي إلى تدمير الطرفين ومعهما كل نوع من الحقوق، لن تدع مجالاً للسلام الدائم إلا في المقبرة الكبرى للجنس البشري، ولهذا يجب أن نمنع مثل هذه الحرب منعاً باتاً"²⁰. يتناغم هذا الموقف مع موقف صاحب كتاب " منطق الفلسفة 21 " الذي يقف ضد أي تبرير سياسي للعنف بحجة تنظيم وتدبير المجتمع ؛ فالعنف لا يمكنه أن يبرر من طرف العقل، أو أن يكون عقلانياً، لأنه يتعارض ويتناقض مع الفكر الذي يقتضي الحوار والاختلاف والاعتراف بالآخر.

إن سحب صفة المشروعية عن العنف نجدها أكثر وضوحاً مع " غاندي" الذي انتهج طريق " اللاعنف" لمقاومة الاستعمار البريطاني للهند، وهكذا فإذا كان العنف حسب "غاندي" يعبر عن رغبة حاقدة وسيئة في إلحاق الأذى بالآخرين فإن " اللاعنف " يعبر عن الإرادة والرغبة الطبيعية ولا يعني " اللاعنف " الاستسلام والخضوع بل هو نضال ذهني وأخلاقي ومقاومة روحية، وشكل من أشكال القوة الإيجابية.

الاتجاه الثاني: مشروعية استعمال العنف

يعتبر أصحاب هذا الاتجاه أن العنف يعتبر شرطاً ضرورياً لتفادي عنف أكبر، وكثيراً ما يستمد مشروعيته من الوظائف الاجتماعية والاقتصادية التي يقوم بها باعتباره شرطاً من شروط الاجتماع البشري²² ؛ فهو

²⁰- إيمانويل كانط، نحو سلام دائم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت 1979 ص: 228-229.
²¹- " أريك فايل" (1904-1977) فيلسوف فرنسي من أصل ألماني، اهتم بتاريخ الفلسفة والقضايا السياسية والأخلاقية.

ضرورة أخلاقية للحفاظ على الأخلاق، و مشروعية العنف ترتبط حسب عالم الاجتماع " ماكس فيبر " بوجود الدولة في معالمها العقلانية والمؤسسية، لأن الارتقاء بالسلطة إلى مستوى الفاعلية العقلانية المتحررة من الاعتبارات الوراثية والتقليدية، وتكييفها وفق أسلوب يمنح للنواميس والأنظمة الكفيلة بتقوية التنظيمات وتطويرها، كل هذا يجعل العنف مشروعاً مادام نظام الدولة هو الذي استوجبه وأقر تنظيمه²³. و للدولة حسب " ماكس فيبر " ثلاثة أسس للمشروعية منها سلطة الأمل الأزلي أي سلطة العادات والتقاليد وهي سلطة تقليدية والسلطة الكاريزمية، والسلطة الشرعية²⁴ وهذه الشرعية التي تتأسس عليها الدولة هي التي تضي الشرعية على سلوكياتها وإن كانت عنيفة، مما يجعل إمكانية مشروعية العنف مقبولة.

يتجلى ذلك بوضوح تام في كتاب الأمير " لميكافلي " حين ينصح الأمير بأن يكون ثعلباً وأسداً في الآن نفسه ، فالأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ كما أن الثعلب غير قادر على مواجهة الذئب، لذلك كان على المرء أن يكون ثعلباً ليواجه الفخاخ ويكون أسداً ليخيف الذئب... وفي كافة أعمال البشر- وخاصة الأمراء. فإن الغاية تبرر الوسيلة، وهذا حكم لا يمكن نقضه²⁵.

وهكذا يظهر أنه يجوز للأمير استعمال كل ما من شأنه تحقيق غايته، ولو استخدم القوة والعنف والإرهاب بل ولو تصرف كالحيوان لإرهاب الخصوم وفرض الاحترام؛ وهذا نموذج للعنف المشروع.

خطاب العلوم الإنسانية

أولاً : الاتجاه النفسي في تفسير العنف

يرجع هذا الاتجاه بشكل عام إلى محددات وأسباب نفسية، فالفرد الذي يرتكب سلوكاً عنيفاً، إنما يتصرف بفعل أسباب نفسية ، وتكثر النظريات والآراء في هذا الصدد، فإذا كان البعض يردده إلى استعداد نفسي داخلي

²²- حناتي أظلي: مرجع سابق، ص 10

²³- محمد ياسين: " ثقافة العنف: الأسس والفاعلية"، مجلة وليلي عدد 14، مطبعة مرجان 2009. ص: 43-44

²⁴- ماكس فيبر " رجل العلم ورجل السياسة، ترجمة نادر ذكري، بيروت، دار الحقيقة 1982 ص: 47-48

²⁵- ميكافيلي: " كتاب الأمير"، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة 2004 ص: 89-90-91

يفقد الفرد السيطرة عندما تتم استشارته أو تهيجه، فإن البعض الآخر، يرد العنف إلى قلق عاطفي وأن مرتكب السلوك العنيف يكون أكثر استجابة للغرائز المختلفة نتيجة لتكوينه النفسي، ونظرا لضعف قوة التحكم لديه.

ويعتبر العالم والطبيب والمحلل النفسي النمساوي "سيجموند فرويد" السباق إلى إحداث زعزعة كبيرة في نظرة الإنسان من خلال اكتشافه لما يعرف باللاشعور، بحيث يعتبره البعض وكأنما اكتشف قارة جديدة في مجال سيكولوجية الإنسان. يقول " فرويد " في كتابه قلق الحضارة «ليس الإنسان قطعاً ذلك الكائن الطيب، ذو القلب المتعطر للحب، والذي يُقال عنه إنه يدافع عن نفسه عندما يهاجم، بل إن الإنسان على العكس من ذلك، فإنه يتحتم عليه أن يضع في حسابه معطياته الغريزية، وهي الحصول على قدر كبير من العدوانية²⁶».

في هذا الصدد يفترض معنا "فرويد" بوجود غريزتين أساسيتين في الإنسان، الأولى تسمى "أيروس" أو إله الحب في الأساطير اليونانية وتسمى أيضا غريزة الحياة تتضمن مجموعة من القوى والدوافع الغريزية وتهدف دائما وأبداً إلى اللذة الجنسية والحفاظ على النوع البشري، أما الثانية، فهي غريزة الموت أو الهدم كمؤسس للدوافع التدميرية وترتبط بالعدوانية والعنف ولها عدة تجليات كالإقصاء والاعتداء ومحاولات التدمير والقضاء على الآخر أو ممتلكاته أو حتى القضاء على الذات.

وتشتغل الذات الإنسانية من خلال صراع مستمر بين غريزة الحياة من جهة وغريزة الموت من جهة ثانية. والسلوك العدواني والعنيف هنا هو اندفاع مرتبط باندفاعات جنسية. و"مبدأ اللذة" هنا، يستهدف أمرين: الأول يحشد طاقاتنا للحياة بأسباب البقاء - الصراع من أجل البقاء - والأمر الثاني يدفعنا إلى الرغبة في الموت من خلال ازدواجية عاطفية تلازم النفس البشرية تتصارع أثناءها إرادة الحياة مع إرادة الموت²⁷، ويشير "فرويد" إلى أن الاضطرابات العائلية التي يخبرها الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة والعلاقات غير السليمة

²⁶ - جرائم العنف وسبل المواجهة: عبد الله عبد الغني غانم، جامعة نايف للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى، الرياض،

1425هـ/2004م، ص: 90.

²⁷ - جرائم العنف وسبل المواجهة: عبد الله عبد الغني غانم، مرجع سابق، ص: 91.

تتبعس سلبا على حياهه مسبقلا؁ وبقى رواسب هذه الخبراا عالقة فى شخصلية الفرد على شكل تراكماء تصبأ دافعا لاشعورفا لانحرافه²⁸. ومع تطور الأللل النفسى وإءخال أغيراا أءىة على مسأوى أفسیره للذاء الإنسانفة ظهرت أأویلاا وأصنيفاا أأرى للسلوك العءوانى أو ما ىسمى لءى الحس المشأرك بالجنون أو فقءان العقل؁ فىكون العنف والعءوان آلالها نأاا لآوءماا وهلوساا؁ إذ فىلأ الذهان آوآراا وصراعات أآماعفة وآنسفة؁ كما فىمكن أصنيفه فىن الآلاا السافكوباءفة أو الشخصلفة المصاا للماآمع.

وفىمكن فهم ذلك من آلال ما ىشبه عسرا أءىءا للآللل النفسى بءأ بظهور كتاب فروفء "الأنا وإلهى" سنة 1923؁ قسم من آلاله العقل إلى آلاآة مآالاا رفسفة؁ الأنا (الشعورفى)؁ و"الهو" (المسآووع اللاشعورفى للآوى الءافعة الغرفزفة) و"الأنا الأعلى" (العناصر الأآلاففة)؁ وفمآل الأنا الأعلى أكثر المفاهفم أهمفة لآونه فىآشكل نأفةة عملفاا مأمزفة آفآ اسآءماآ السلطاا الأآلاففة المهمفة فى الآفة المبكرة؁ وآوآفه نسبة معففة من اللفبفءو²⁹ النرجسى إلى آلك الأآلاففا المسآءمآة و المسآءآلة بآف لا فىصبح الفرد مآبا لذاءه كما هو فآسب ولكن كما "فىب" أن فىكون ارآءاء ءفعاا الكراهفة والعءوان الآى لا فىمكن الأعبفر عنها آارففا إلى ذاء الشآص³⁰؁ وآآآلف الآراء آول الءافع المباشر للعنف فهناك من فىرآعه إلى ضعف الأنا الأعلى أو آفابه أو فسوآه؁ فكآفر ما آكون مطالب الأنا الأعلى أكثر صرامة وفسوة آآى من السلطاا الآارففة وهنا آءآل القاعءة العامة القائلة بأن الغراآز الآى لا آسآطفع أن آءء إشبعاا آارففا آآه إلى اسآآفاء طاآآها ءاآل الكائن نفسه؁ والغرفزة فى هذه الآالة هى العءوان؁ وىأار العءوان بالإنباط الذى آعرض له الكائن منذ طفولآه؁ وإذا كانت السلطاا الآارففة لطيفة ومآسامآة فإن آوآفه هذه العءوانفة ناوها فىصبح أكثر

28- واقع الآرمة واءاهاآها فى الوطن العربى؁ ء أكرم عبء الرزاق المشءءانى؁ آامعة ناىف العربفة للعلوم الأمنية؁ الطبعة الأولى الرفاص؁ 2005-1426 ص: 136.

29- اللفبفءو: libido كلمة لآفنففة ومعناها: الآلآء اسآآاءا إلى شهوة آسفة. وفى ضوء الأللل النفسى هى الطاقء النفسفة الأساسية للکائن الآى؁ وءء ارآبآط فى البءافة بالطاقء الجنسفة؁ ولكن بعء اآآشاف غراآز الموء؁ وغراآز الآفة؁ أصبآآ آعنى طاقء الآفة النفسفة للکائن الآى.

30- علم النفس فى مائة عام؁ آ.ل؁ فلووآل؁ آرآمة: لطفى فطى؁ ءار الطلفعة؁ بفروآ؁ ط: 4؁ 1988؁ ص: 200.

صعوبة مما لو كانت عنيفة "لأنها تبدو في هذه الحالة لا تسحق العدوان"³¹، لذلك تتجه إلى جهة أخرى لإيجاد مخرج بديل عبر عمليات لاشعورية، يُطلق عليها اسم الميكانيزمات الدفاعية³².

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا ينبغي اختزال التحليل النفسي في شخص فرويد، ولكنه توسع مع "أدلر" و"يونج" فقد قدم "أدلر" الكثير من الإضافات القيمة إلى دراسة الذات والعدوان، تجاوزت مفهوم الجنس والصراع النفسي والكبت والتكثيف والإزاحة وحتى فكرة اللاشعور، بل امتد اللاشعور مع ثورة "يونج" ليشمل طبقة أعمق تشترك فيها كل السلالة، هي "اللاشعور الجمعي"، الذي يحتوي على "الأنماط القديمة" التي تعبر عن المفاهيم والحاجات والطموحات البدائية للبشرية، وكذلك "اللاشعور الشخصي"، الذي يتضمن المواد المكبوتة من خبرة الفرد نفسه³³.

وقد زعم بعض علماء النفس أن تجارب الإحباط الشديد في مرحلة الطفولة والمراهقة تؤدي إلى مخزن من الغضب نحو الآخرين، قد ينتهي بالقيام بسلوك عنيف معهم بما في ذلك قتلهم، وقد انتهى "بالمز" من دراسة له عن القتل إلى أنهم قد مروا بصدمات وإيذاء يعادل ضعف ما تعرض له غير القتلة، وذلك خلال مرحلة طفولتهم ومراهقتهم، وتتمثل هذه الخبرات المرضية في معاناة الميلاد، والعمليات الجراحية الخطيرة والأمراض والحوادث الخطيرة، والضرب والإيذاء البدني من غير الوالدين والعيوب الخلقية، والتعرض لنظام

³¹ - المرجع السابق، ص: 200.

³² - الميكانيزمات الدفاعية: يعود هذا المصطلح في نشأته إلى "سيجموند فرويد" ويعنى بها الحيل الدفاعية هي عبارة عن أنواع من السلوك أو التصرفات التي ترمي إلى تخفيف حدة التوتر النفسي المؤلم والقلق وحالات الضيق التي تنشأ من استمرار حالة الإحباط مدة طويلة بسبب عجز الإنسان عن التغلب على العوائق التي تعترض إشباع دوافعه وهدفها وقاية الذات والدفاع عنها وتحقيق والاحتفاظ بالثقة في النفس واحترام الذات وتحقيق الراحة النفسية والأمن النفسي

³³ - المرجع نفسه، ص: 206.

صارم، وأم مهملة، والتبول الليلي والتأتأة ومصاعب الدراسة، مع أعراض تشير المعاناة من إحباط كبير ينجم عنه إحباط أكبر³⁴.

والخلاصة مما سبق ذكره هو أن المدخل النفسي للعنف سواء من جهة التحليل النفسي أو مختلف الاتجاهات النفسية والأبحاث المستحدثة تركز على أهمية البعد النفسي للعنف، وبالرغم من وجود انتقادات لاسيما للتحليل النفسي يبقى هذا البعد النفسي والجانب التحليلي للشخصية الإنسانية غاية في الأهمية، لكن السؤال الذي يجب وضعه في هذا السياق، هو هل الجانب النفسي هو البعد الوحيد لتحديد العنف في شموليته وحقيقته؟

وجهة نظر علم نفس الحيوان³⁵:

عمد "كونراد لورنز" إلى دراسة العدوانية لدى الحيوانات فبين أن شراسة الحيوان المفترس ودمويته ليست سوى أسطورة، والعلاقات الدموية والعدوانية المفرطة لا تلاحظ إلا بين الحشرات، وللعدوانية وظيفة تحدد في أربع نقاط:

● الدفاع عن المجال الحيوي عن الطريدة أو منطقة الصيد

● البحث عن الغذاء

● المكانة المرتبية ضمن الجماعة بُغية تحقيق توازن وظيفي وأعلى مكانة هي حماية الجماعة من

الأعداء وحراستها

● التزاوج إذ تبرز أشكال القتال ضراوة بين أفراد الجنس نفسه، وتكتب الغلبة للأقوى مما يؤدي إلى

تطور الجنس.

³⁴ - عبد الله عبد الغني غانم جرائم العنف وسبل مواجهته، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى

الرياض 2004-1425. ص ص : 96-95

³⁵ - مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، المركز الثقافي العربي، ط: 8، 2001، بيروت. لبنان، ص: 184-185.

وقد استخلص "لورنز" من دراساته على سلوك الحيوان في القتال عدة أشياء أهمها أن كل سلوك عدواني لدى الحيوان أو كل ميل عدواني يقابله ويضبطه ميل كابح يمارس عمله من خلال سلوك طقسي *conduite mutuelle* يقوم به الحيوان الأضعف، وتزداد قوة الكابح كلما ازدادت الميول العدوانية والسلاح العدواني، ومن هذا المنطلق يرى "لورنز" أن مأساة الإنسان بعدوانيته التي تتفجر عنفا وشراسة وحقداً تعود إلى فقدانه التكيف النزوي، أي فقدان الكوابح الغريزية لعدوانيته التي حلت حلها الكوابح الخلقية والحضارية، كما يؤكد على وجود ما يسمى بالحماس المناضل *Enthousiasme militant*، وهو نوع من العدوان المشترك يرتبط بالانتماء إلى جماعة ما، يظهر عند الإنسان والحيوان ويستند إلى غريزة تنطلق في ظروف خاصة للدفاع عن الجماعة، والحماس المناضل استجابة انفعالية لا تخضع لمنطق أو إقناع عقلائي، ومن شروطه الأساسية :

- ❖ الإحساس بتهديد فعلي للجماعة التي ينتمي إليها
- ❖ وجود عدو خارجي محدد هو مصدر التهديد
- ❖ ازدياد عدد أفراد الجماعة التي تلتف حول الزعيم البطل
- ❖

ثانياً : الاتجاه البيولوجي

ارتبط الاتجاه البيولوجي في تفسير السلوك العنيف تاريخياً بالطبيب الإيطالي "لومبروز *Lombroso* "فهو صاحب مفهوم " المجرم بالميلاد" وهو الإنسان الذي تتوفر فيه مجموعة من الصفات من بينها عدم تناسق شكل الجمجمة وضخامة الفكين وبروز عظام الخد ورقة الشفة العليا عن السفلى وكبر الأذنين وكثافة الشعر، ثم يتبعها بعض الصفات النفسية التابعة منها ضعف الإحساس بالألم والميل إلى العدوان وانعدام الشعور الخلق وقصر النظر والغرور.

يستنتج Lombroso وكما هو معلوم من خلال بحوثه أثناء عمله في الجيش الإيطالي أن المجرمين الحقيقيين هم المتخلفون في تطورهم أو العائدون إلى صفات الإنسان الأول، وهنا يمكن تشخيصهم من خلال ملامحهم البدنية من أشكال أبدانهم ووجوههم وأيديهم، ومنه فإن هؤلاء الأشخاص المتخلفون غير قادرين وراثيا على السلوك القانوني والسوي³⁶.

وفي نفس الاتجاه يذهب دي توليو Detullio الذي وضع نظرية التكوين الإجرامي أو الاستعداد السابق للإجرام عام 1945 تبين وجود أفراد لديهم استعداد أو ميل إلى الجريمة لا يتوفر لدى الآخرين معتبرا أن الظروف البيئية لا تثير النزعة العدوانية لدى الجميع فهي تشكل مثيرات كاشفة لنزعات المفطورين (المجولين) على السلوك العدواني والإجرام، إذ يوجد عيوب في إفرازات الغدد الداخلية.

وبشكل عام يفسر العنف بيولوجيا بكونه شذوذ في التركيب الجيني أو التركيبية الوراثية، إذ تركز الأبحاث في هذا الجانب على التكوين الجيني أو تكوين الكروموزومات لدى الإنسان هي 46 وحدة صبغية - كروموزوم - منها 22 زوجا متشابهة تشابها كليا وكل صبغ أو كروموزوم يحتوي على آلاف المولدات الكهربائية في حين أن الزوج الثالث والعشرين وهو زوج الصبغيات أو الكروموزومات الجنسية يختلف حسب الجنسية للمرأة صبغيين متشابهين (xx) أما الرجل فله صبغيين مختلفين (yx).

في هذا السياق الذي ننظر فيه إلى الإنسان نظرة بيولوجية تتجه الدراسات إلى أن الأفراد العدوانية والعنيفين لدى أغلبهم حالات من الشذوذ في صبغتهم الجنسية بحيث قد تؤدي زيادة (x) واحد أو اثنين إلى تخلف عقلي، كما أن زيادة (y) واحدة قد يكون لها تأثير في الغرائز العدوانية. وقد تحدث "ميشيل كورناتون" في كتابه جذور العنف الحيوية النفسية والاجتماعية³⁷، على أنه قد لوحظ بالفعل وجود نسبة كبيرة من صبغية (XYY) وهي غير طبيعية بين المجرمين العنيفين.

³⁶- واقع الجريمة واتجاهاتها في الوطن العربي، د أكرم عبد الرزاق المشهداني، مرجع سابق ص 131.

³⁷- المرجع: جرائم العنف وسبل الواجهة، عبد الله عبد الغني غانم، مرجع سابق ، ص: 69.

لذلك حاول بعض الباحثين الربط بين حالات الشذوذ في الصبغيات وبين الميولات إلى العنف والعدوان لدى الإنسان.

إن هذا التفسير البيولوجي للعنف وصل إلى حد أن بعض علماء الأعصاب قام بوضع خريطة للنزاعات الدماغية الشاذة التي تتعلق بالسلوك العدواني والعنيف، كما حاول آخرون إبراز العلاقة بين السلوك العنيف من جهة وكيميائية الدماغ من جهة أخرى³⁸.

ويعود التفسير البيولوجي للعنف حديثاً إلى ما توصل إليه فريق هولندي بالتعاون مع علماء من الولايات المتحدة لما اكتشف فريق البحث صدفة أن الرجال في إحدى العائلات الهولندية قد ارتكبوا على مدى خمسة أجيال أعمال عنف واغتصاب وإحراق ممتلكات، كما تبين أن أولئك الرجال يعانون خلافاً جينياً جعل الأنزيم المسؤول عن تنظيم السيروتونين الذي تفرزه المراسلات العصبية عاجزاً عن العمل.&

وإذا كانت الدقة والصرامة العلمية تفيد بعدم تعميم نتائج مثل هذه الأبحاث وهو الأمر الذي ينتصر إليه "هان برونر" عالم الوراثة الهولندي، وعضو فريق البحث السالف الذكر، فإن بعض الدراسات والأبحاث الحديثة تفسر العنف بوجود مورثات جينية تسبب إنتاج هرمونات معينة أو تغيير الإفرازات الهرمونية في الجسم قبل الولادة أو بعدها مباشرة³⁹. ويمكن النظر إلى تجليات التفسير البيولوجي للعنف كما يلي:

(1) وراثية الحمافة:

³⁸ - المرجع السابق، ص: 70.

³⁹ - المرجع نفسه، ص: وفي هذا الصدد تؤكد البيولوجية الأميركية "كيت ماكبرنيت" الأستاذة بجامعة شيكاغو الأمريكية أن البداية المبكرة للسلوك العدواني واستمراره مرتبط بوجود مستويات منخفضة من هرمون التوتر المسمى "كورتيزول" في اللعاب.

فوجود مستويات منخفضة من هرمون التوتر "كورتيزول" تشجع السلوك العدواني لدى الفرد في سن 7-12 سنة، وإن الأطفال الذين يرتكبون سلوكيات عنيفة وعدوانية ويتورطون في جرائم أحياناً ليس لأن هناك خطأ في التربية، ولكن الأمر يتعلق بوجود مورثات جينية تسبب إنتاج هرمونات معينة أو تغيير الإفراز الهرموني بشكل طبيعي.

يعتبر هذا الموقف امتداداً لما قام به علماء الفراسة في منتصف القرن التاسع عشر، فبعدما درسوا شخصية الفرد من خلال مواضع وتواءات في الرأس، ووضعوا خريطة لجمجمة الإنسان وحددوا المنطقة رقم 6 "من بين 35 منطقة" على أنها هي المسؤولة عن العنف والنزعات التدميرية في الإنسان، جاء بعض البيولوجيين ليفسروا العنف وارتباطاته من إدمان للكحول وجرائم بسبب سمة واحدة وهي "الحماسة" باعتبارها حالة موروثية تنتقل من جيل لآخر شأنها في ذلك شأن وراثته لون الشعر أو العيون.

في هذا الصدد يفسر أحد رواد هذه الدراسات في الولايات المتحدة الأمريكية "هنري جودراد"، حالة الحمقى بكونهم عبارة عن أشكال إنسانية غير متطورة، بل مجرد كائنات حيوانية ذات ذكاء ضعيف ويتمعون بجسد قوي، إلا أن هذا الزعم يمكن وصفه بالتفسير الإيديولوجي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعلل ذلك بقول "تشارلز ديفنون" مدير معهد كارنيجي في نيويورك وأحد علماء تحسين النسل المشهورين «إن التدفق الكبير للهجرة من شرق وجنوب أوروبا سوف يجعل الأميركي أكثر سمرة وأقل منزلة وأكثر مكرماً وميلاً لارتكاب جرائم السرقة والخطف والاعتداء والاعتصاف» وكأنما المهاجرين يحملون في تكويناتهم الجينية موروثات العنف.

(2) النقص العقلي:

يفسر البيولوجيون في هذا الصدد العنف بكونه يرتبط بعيوب ونقائص تصيب العقل البشري، وقد أجريت أول دراسة من هذا النوع على أدمغة المجرمين عام 1980 توصل من خلالها الباحثون إلى أن لمرتكبي جرائم العنف أدمغة تحتوي على مناطق غير نشطة تتعلق بمراكز السيطرة ويرجع أنهم تعرضوا في صغرهم (طفولتهم) للضرب على الرأس.

وما يزيد من أهمية هذا التفسير هو اكتشاف أحد العلماء النفسيين عام 1997 من ولاية تكساس أن نزعات العنف والعدوان تعود إلى تلف في الفصين الأمامي والخلفي بأدمغتهم بسبب ما يلحق بالدماغ من أضرار. وهنا

لا يستطيع الأشخاص الذين يُعانون من أضرار أو تخلف في نمو الفصوص أن يتحكموا بدوافعهم، وهكذا تم الربط بين النقص العقلي والعنف بالرغم من ما أبداه الكثيرون من تحفظ.

(3) انحرافات وظائف الدماغ:

يرتبط العنف بانحرافات وظائف الدماغ، ويستند رواد هذا التفسير وهم علماء الأعصاب إلى معطيات التشخيص بواسطة آلة قراءة الدماغ أو ما يسمى بجهاز رسم المخ وهي آلة تستخدم التصوير الرنيني المغناطيسي الوظيفي والتصوير الطبقي بانبعث البيزترون للكشف عن الأخطار. وتعتبر حالة الفتاة المراهقة "جولي" التي أوردتها "كولين بلاكمور" من جامعة أوكسفورد من أمثلة العلاقة بين العنف والخلل الوظيفي للدماغ، إذ لم تكن هذه الفتاة تستطيع التحكم بجسمها فطعت امرأة في قلبها، ليكتشف الأطباء فيما بعد أنها كانت تُعاني من نوبات صرعية صغيرة تتركز في بقعة من الدماغ تسمى "اللوزة" تقوم بدور جهاز الإنذار في الدماغ لذلك يرى "كولين" أنه من العبث معاقبة مرتكبي أعمال العنف، بل يجب علاج أدمغتهم.

وقد نشرت دراسة عام 1999 من طرف مجلة Natur Norscience في نفس الموضوع تكشف أن حدوث إصابات في سن مبكرة جداً في القسم الأمامي من الدماغ يمكن أن تحول الطفل إلى شخص بالغ غير مسؤول ومهمل وجامح.

ثالثاً : الاتجاه الاجتماعي للعنف

إذا كان الاتجاه النفسي يرجع العنف إلى محددات وأسباب نفسية، بحيث يتصرف الفرد بشكل عنيف بفعل أسباب نفسية فإن ما يؤخذ على هذا الاتجاه هو المبالغة والمغالاة في الانحياز لأهمية العوامل النفسية، ولعل تغيب الجانب الاجتماعي يشكل تغييباً وإقصاءً لجانب مهم من حياة الإنسان . إن مشكلة العنف في هذا السياق يصعب فصلها على هو اجتماعي، إذ كيف يمكن أن نتحدث عن الفرد في غياب المجتمع ؟ . يؤكد عالم الاجتماع الفرنسي "إميل دوركايم" في كتابه "في تقسيم العمل الاجتماعي" بأنه "تتمحي فرديتنا (بالضرورة)

عندما يشتغل التضامن الآلي⁴⁰، فلا يكون الفرد فرداً بل كائناً منصهراً في "الجماعة"، وفي نفس المعنى يذهب الفيلسوف وعالم الاقتصاد الألماني كارل ماركس ليؤكد على أن الفرد ظهر ككائن مرتبط بمجموعة أوسع، يرتبط أولاً ارتباطاً طبيعياً بالعائلة والعشيرة كعائلة ممتدة، ثم يرتبط بعد ذلك بالمجتمع في صورته الشمولية، لذلك لا يمكن إنكار البعد الاجتماعي، ومن ثم فالعنف باعتباره سلوكاً صادراً عن فرد لا يمكن هو الآخر فصله على ما هو اجتماعي.

وبالرغم من تداخل ما هو ثقافي مع ما هو اجتماعي في تفسير العنف فإنه يمكن تصنيف الاتجاهات الاجتماعية المفسرة للعنف حسب السمة الغالبة عليها إلى:

1: تفسير ثقافي

2: تفسير اجتماعي

3: التغيير في المجتمع ونظمه

4: اتجاهات تفسيرية أخرى

(1) - التفسير الثقافي للعنف:

يتعلق العنف من حيث هو عنفاً أي من حيث معاييره والحكم عليه أنه كذلك بالثقافة السائدة، والتي تختلف من بلد لآخر، فالعنف قد يكون عنفاً في بلد ما وقد يكون سلوكاً عادياً في بلد آخر وذلك حسب الثقافات.

ولما كانت الثقافة تنشئ وحدة مشتركة رهن مرتكزات الأخلاق والمعرفة والعمل، ولما كان رفض الانتماء لثقافة ما والتكلم بلغتها وقبول نظامها ومعاييرها يعني رفض ثقافة هذه الجماعة فإن ذلك الرفض يعبر عن

⁴⁰ - التضامن الآلي: يُقصد به تضامن أفراد المجتمع الواحد، بحيث يتجاوز إرادتهم ومصالحهم الخاصة، ولذلك ينشأ عن علاقات اجتماعية ناضجة تغلب فيها الهوية والمصلحة الجماعية والمشاركة.

عدوانية ثقافية من جهة ويعبر عن مظاهر العنف من خلال آلية الصراع، لكن هنا نتجاوز المفهوم البسيط لمفهوم العنف إلى مفهوم أكثر أهمية وهو العنف الرمزي، وذلك من خلال لعبة العنف والعنف المضاد على المستوى الثقافي الرمزي، فعنف الزوج مثلاً⁴¹ في أميركا وهي الفئة التي تجمع الإحصاءات الأميركية على أنها الأعلى ارتكاباً لجرائم العنف، مرجعه ثقافي وهو أن شعار الثقافة الأميركية يرفع من قيمة الثراء وجعله غاية الغايات، وعدم فتح سبل مشروعة لكسب وبلوغ ذلك مثل تلك الفرص المتاحة للبيض. فكان من الطبيعي اللجوء للعنف خاصة وأن العنصرية والتحيز والتعصب القائم على العرق والسلالة تشكل في حد ذاتها عنفاً مما يؤدي إلى عنف مضاد ويؤجج الصراع كنتاج لتصادم ثقافتين.

وقد ذهب "هنتغتون في كتابه صدام الحضارات إلى أن العنف نتاج لصراع الثقافات، وهذا الصراع ينقسم إلى صراع داخلي وصراع خارجي. فالصراع الداخلي يختلف باختلاف الاتجاهات والقيم الاجتماعية داخل المجتمع الواحد تبعاً لاختلاف العادات والتقاليد والأنماط الثقافية. أما الصراع الخارجي فإنه يمثل في التصادم بين اتجاهات ثقافية مختلفة، وأساليب السلوك الداخلية المرتبطة بثقافتها الخاصة، ويكون التصادم بين الثقافتين بشتى الوسائل كالاستعمار، الحدود، الهجرة.

وما ينبغي التنبيه إليه هو أن الاستعمار له دلالة ثقافية ورمزية أكثر مما لديه دلالة مادية عسكرية، ويمكن أن ندخل حالات العنف لدى الزوج في أميركا مظهراً من مظاهر الصراع الداخلي، لكن لها امتدادات ثقافية وتاريخية وعرقية أيضاً. لذلك يؤكد هنتغتون على أن المبادئ الفلسفية والقيم الإنسانية والعلاقات الاجتماعية والأعراف وطريقة النظر إلى الحياة بشكل عام تختلف واقعياً من حضارة لأخرى⁴².

ليس العنف أحياناً مجرد مظهر من مظاهر الثقافة أو نتاجاً لها، بل يشكل ضرورة وواجباً ثقافياً، وذلك حسب ما يعرف بنظرية الثقافة الفرعية التي أوضح "بيتر تاونسند" بأنها تتكون من أنساق متميزة للقيم

⁴¹ - محمد الأزهر، مبادئ علم الإجرام، ط: 4، دار النشر المغربية، البيضاء (2000)، ص: 59 . 60.

⁴² E Samuel. P. Himtington, 2000, « Le choc des civilisations », Odile Jacob, Paris, p : 24.

والعادات، بحيث تتكون منظومة ثقافية تختلف عن تلك السائدة في المجتمع ويتم انتقال قيمها ومعتقداتها من جيل لآخر، وكمثال على ذلك نجد قبائل "مورياس Morias" بالهند تتخذ من ممارسة العنف والقتل والسلب والنهب مهنة لها، ويتم توريث الأبناء العنف وتنشئتهم عليه باعتباره أسلوباً مقبولاً .

II - التفسير الاجتماعي:

في الحقيقة غالباً ما يصعب الفصل التام بين ما هو نفسي وما اجتماعي إذ يشتغلان في تفاعل مستمر وعلى نفس المنوال يتداخل الثقافي مع الاجتماعي فتكون حدودهما نسبية، لكن مع ذلك نركز على البُعد الاجتماعي للعنف في صورة امبريقية وواقعية، وذلك من خلال فهمه كظاهرة متشابكة الخيوط داخل النسيج الاجتماعي لعلاقات متعددة ومختلفة ولمؤسسات اجتماعية وتربوية تنشئية. من هذا المنطلق سنتناول التأصيل السوسيولوجي للعنف من خلال محاولات جادة في تفسير العنف كظاهرة اجتماعية لها أسبابها ومظاهرها وتجلياتها ومشاكلها، وعليه فجزور العنف مصدرها الإطار الاجتماعي الذي يضم الأسرة والمدرسة وباقي المؤسسات التربوية وغيرها، وتختزل هذه المؤسسات الاجتماعية معايير وقيم تكون هي المحرك لكل فرد نشأ وتربى فيها. يتعلق الأمر هنا بالتنشئة الاجتماعية، باعتبارها عملية إكساب الفرد أدواراً اجتماعية لكي يشغل مكانات موقعية في الجماعات التي يعيش في وسطها، واكتساب الفرد للأدوار يتحقق من ناحية اجتماعية عملية، في أسرته، وجماعته الرفقية، ومدرسته، ومكان عمله، وباقي الجماعات الاجتماعية التي ينخرط بها على مكانة اجتماعية⁴³.

وفي حالة وجود العنف في هذه الأوساط الاجتماعية فإنه من الطبيعي أن يلجأ الفرد لممارسة العنف، ويعتبر عدم لجوئه للعنف مجرد استثناء. بل أكثر من ذلك هو قد يصبح مرتكب سلوك العنف شخصية بطلاً وقوية وقادرة على تجاوز الصعاب في ما يمكن تسميته سوسيولوجياً بـ: "الرجولة" أو "السوبرمان"، كما هو الشأن بالنسبة لبعض الأوساط الاجتماعية في البوادي في المغرب مثلاً، ويتحول الملتزم والخاضع للمعايير

⁴³ - التنشئة الاجتماعية، د. معن خليل العمر، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط: 1، 2004، عمان، الأردن، ص: 20.

إلى خائف وخانع تنعدم فيه ما يسمى بـ"الرجولة" في الأوساط الشعبية أحياناً، ولعل هذه القراءة تذكرنا بما رأيناه سلفاً في التفسير بالثقافة الفرعية، لكن الأمر هنا يتعلق بمعيار اجتماعي وليس ثقافي.

أ - اللامعيارية (إيميل دوركايم):

سنجد إذن من المفاهيم التي تشكل المدخل الاجتماعي للعنف "اللامعيارية أو الأنوميا" والضبط الاجتماعي والضغط الاجتماعي، ويُعد السوسيولوجي الفرنسي "دوركايم" من رواد هذا الاتجاه فقد فسّر الظاهرة الاجتماعية بكونها ظاهرة طبيعية تتصل بتكوين المجتمع وطبيعة الحياة الاجتماعية، والعنف هنا نتاج اجتماعي ينتجه المجتمع نفسه من خلال إدانته وتحديده لبعض الأنماط السلوكية بوصفها أفعالاً مخلة بالمعايير والقواعد الاجتماعية⁴⁴، وقد عهد "دوركايم" على محاولة تحديد الظاهرة الاجتماعية وتشخيصها، فاعتبرها تلقائية بمعنى أن الفرد ليس بصانعها لأنها موجودة قبل أن يوجد الأفراد، فنحن نولد ونجد أماناً مجتمعاً كاملاً معداً من قبل لا نستطيع أن نغيره إذا أردنا وما علينا إلا الخضوع لكن بالمقابل نجد هذا المجتمع قد وضع الجزاء لكل من ينحرف ولم يتبع النظام الاجتماعي⁴⁵.

وإذا كانت الظاهرة الاجتماعية خارجية بمعنى أن لها خواص سابقة عن الأفراد ومستقلة عنهم كما يحدد "دوركايم"، فإن المسألة هنا تجعلنا نشكك في مسؤولية الأفراد، لأنه مادام المجتمع تشكل خارج الأفراد ومادام الفرد مستقل عن ظواهر المجتمع، فالعنف كظاهرة من بين ظواهر أخرى مسؤولية اجتماعية بامتياز، لكن ما ينبغي التأكيد عليه هنا هو أنه حتى علماء الاجتماع اختلفوا في الإجابة عن سؤال من المسؤول عن من؟ أو من يصنع من؟ هل المجتمع هو صانع لأفراده أم الأفراد صانعوا مجتمعهم؟ أم أن الإنسان أصلاً لا يكون إنساناً إلا

44- واقع الجريمة واتجاهاتها في الوطن العربي، مرجع سابق، ص: 140.

45 - اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، د. عبد الباسط عبد المعطي، عالم المعرفة، غشت 1981، الكويت، العدد: 44،

بالجماعة التي يحقق فيها إنسانية، وكذلك الجماعة ليست سوى الغاية الطبيعية للإنسان بصفته مواطناً له القدرة على المشاركة في تدبير الشأن العام؟

إن قراءة سوسولوجية عفوية تنطلق من قبول الافتراض الأخير الذي يحدد علاقة الفرد بمجتمعه في عبارة "الفرد والمجتمع وجهان لعملة واحدة" وربما هو ما اهتدى السوسولوجي الألماني "نوربرت الياس" تجعلنا نفسر أن العنف يرتبط بخلل في الجماعة التي يحقق فيها الإنسان إنسانيته أو خلل في طريق المشاركة التي قد تعطينا حالة الانصهار والاندماج في المجتمع أو حالة "اللاتكيف" واللاتوافق الاجتماعيين.

وقد أشار دوركايم إلى أن حتمية الظروف الطبيعية على المجتمع تولد ما اصطلح بـ"الأنوميا"⁴⁶، وهو مفهوم طوره "ميرتون Merton" فاعتبره حالة اجتماعية تتصف بالتناقض والصراع بين الأهداف التي يحددها المجتمع والطرائق التي يقررها في تحقيق هذه الأهداف كما يشير "الأنومي" إلى ضعف المعايير الاجتماعية الضابطة لسلوك الأفراد أو غيابها أو عدم وضوحها⁴⁷. وإذا كان الانحراف وفق رؤية ميرتون نتاجاً لغياب التوازن بين الأهداف ووسائل تحقيقها فإن العنف هنا سيجد تربة خصبة إذا رفض المجتمع الوسائل غير المشروعة.

خلاصة

إن ما يمكن استخلاصه من وراء مسألة العنف هو أنها متشابكة الخيوط، فالعنف ليس مفهوماً وحسب ولكنه سلوك وممارسة صادرة عن الذات الإنسانية، وبالرغم من اشتراك الإنسان مع الحيوان في هذا النمط السلوكي، فإنه لا يمكن أن نغامر بالقول: إنه صفة إنسانية أو أنه سلوك فطري. وما دام نفي صفة الفطرية واعتباره نتاجاً لما دون ذلك هو الآخر مجازفة في دراسة المسألة، فإنها تبقى أسيرة تفسيرات لمجموعة من الخطابات

الأدبية و العلمية. إن مسألة العنف إشكالية فلسفية وهي أيضا ظاهرة ثقافية واجتماعية كما لها ارتباطات نفسية وفسولوجية وهو ما يجعلها مجال الاختلاف في المبحث الأقرب لفهمها ودراستها .

وبالنظر إلى أشكاله المتعددة والمختلفة التي تنخر في الوجود البشري نفسيا، ومعنويا، وجسديا، فإن مجال مقارنته يجب أن ترتبط بمظاهره وتأثيراته ، فأثار العنف ونتائجه متعددة ومختلفة على الفرد والجماعة الإنسانية لاسيما في حالة الاعتداءات الجسدية والنفسية . ولعل هذه الحالة الإنسانية هي التي تجعل منه مسؤولية اجتماعية وأخلاقية يجب أن يتحملها الإنسان ، كل الإنسان ، لاسيما المفكر والعالم ومن أوكلت إليه مهمة التربية .

يظهر لنا بوضوح تام أنه لكي يعيش الناس في أمان وسلام على نحو أفضل ممكن يستوجب عليهم تخليق الحياة المدنية والاجتماعية وإعادة النظر في أنماط التفكير المشجعة على العنف أو المشجعة على محاربة العنف بالعنف، كما يستوجب محاصرة أسبابه ومعالجتها. وبناء على ذلك يجب أن ينزل المجتمع المدني والإعلام والجامعة والمدرسة وكل المنابر العلمية والأدبية بكامل ثقلهم ، وحتى جهاز الدولة بمختلف مؤسساتها السياسية للاضطلاع بمسؤوليتهم التاريخية والأخلاقية لمعالجة مسألة العنف وفهم خيوطها .

المراجع :

العربية :

- أحمد مصطفى جابر « ضد العنف والتمييز » دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، الطبعة الأولى 2005 .

- أكرم عبد الرزاق المشهداني، واقع الجريمة واتجاهاتها في الوطن العربي ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الطبعة

الأولى الرياض، 1425هـ/2004 م.

- إيمانويل كانط، نحو سلام دائم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت 1979 .

- المصطفى حدية: قضايا في علم النفس الاجتماعي، الطبعة 1-2005 ربانيت، الرباط، .
- ج.ل، فلووجل ، علم النفس في مائة عام ، ترجمة: لطفي فطي، دار الطليعة، بيروت، ط: 4، 1988.
- حماني أقليمي، العنف، مقاربات فلسفية، ، وليلي، العدد 14، ، مطبعة مرجان مكناس، أبريل 2009 .
- منير كرادشة، العنف الأسري، سيكولوجية الرجل العنيف والمرأة المغنفة، ، عالم الكتب الحديث إريد- الأردن 2009 .
- مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء الطبعة 8-2001 .
- 2002 ، -.عبدالرحمان مصلح الشراي "انحراف الأحداث في التشريع المغربي والقانون المقارن"، مطبعة الأمنية، الطبعة الأولى .
- عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، ، عالم المعرفة، الكويت، العدد: 44، غشت 1981 .
- عبد الله عبد الغني غانم ، جرائم العنف وسبل المواجهة ، جامعة نايف للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى، الرياض، 1425هـ/2004 م .
- كاظم الشيب " العنف الأسري" قراءة في الظاهرة من أجل مجتمع سليم، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2007، المغرب .
- ج. جاك رسو: العقد الاجتماعي، ترجمة بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1972 .
- ج.لوك، في الحكم المدني، ترجمة ماجد فخري، عن محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، حقوق الإنسان، دار توبقال للنشر ط 2-2004.
- ماكس شيلر، الإنسان الحاقد، وراة عن غايات بيكون، آفاق الفكر المعاصر، الترجمة العربية، منشورات عويدات، بيروت .
- محمد ياسين: " ثقافة العنف: الأسس والفاعلية"، مجلة وليلي عدد 14، مطبعة مرجان 2009.
- ماكس فيبر " رجل العلم ورجل السياسة، ترجمة نادر ذكري، بيروت، دار الحقيقة 1982 .

- مكيافيللي: " كتاب الأمير"، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة 2004 .
- محمد الأزهر، مبادئ علم الإجرام، دار النشر المغربية، ط: 4، البيضاء 2000 .
- معن خليل العمر، التنشئة الاجتماعية، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط: 1، 2004، عمان، الأردن .

-الأجنبية :

- ❖ E Samuel. P. Himtington, 2000, « Le choc des civilisations », Odile Jacob, Paris, p : 24.
- ❖ freud, Essais de psychanalyse , ed Payoy, p 240
- ❖ F.Engles, L'origine de la famille, trad. J. stern, ed. Sociales, Paris, p 281-286.
- ❖ Petit Robert par Paul Robert, Dictionnaire de la langue Française.- rédaction dirigée par A.Rey et REY- Debove.107 avenue Parmentier, Paris- XI, p : 2097
- ❖ Thomas Hobbes, le Léviathan, traité de la matière et la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, chap. XIV trad. Fr.traicand, Sirey 1971 pp120.
- ❖ JJ. Rousseau, le contrat Social, PUF, France, 2000 deuxième Livre, chap. VI

